القراءة وإشكالية التثاقف المعرفي في العلوم الإنسانية، مكتبة العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم أنموذجا.

د. بومحراث بلخير*

Reading and problematic of cognitive acculturation in the sciences humans
The social science library of the University of Mostaganem as a model

ملخص:

تقاس المجتمعات الحالية بمسار ما تنتجه جامعتها اتجاه طلبات الإنسان، سواء تعلق الأمر بجانبه المادي أو الرمزي. وتتشارك جامعات العالم في هذا المعطى الكل حسب طاقاته وإمكانياته، التي تختلف من بلد إلى بلد آخر، نتيجة تعدد وتنوع المعطيات التاريخية والحضارية والدينية واللغوية والعرقية الخ. ونحن في هذا المقام سنحاول حصر مقالنا في عنصر ضروري هو على النحو الآتي:

يقوم هذا العنصر، على استنطاق الواقع المعرفي والعلمي في حقل العلوم الإنسانية بجامعة مستغانم، من خلال مكتبتها التي تعد رأسمال معرفي، يلجأ إليها من يشتغلون في هذه الاختصاصات ليتزودوا بالمعارف والمناهج التي يسعون من خلالها لحل إشكالياتهم النظرية والفكرية من جهة، إضافة إلى أنها تمثل مجال لتحيين المعلومات والأفكار التي تتواجد في العالم من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: المكتبة، الرأسمال الرمزي، التثاقف، المناهج ، المقروئية.

Abstract

Today's societies are measured by what their universities produce towards the demands of man, whether on his human or material level. The universities of the world share this information according to their capacities which differ from one country to another, because of the multiplicity and the diversity of the historical, cultural, religious, linguistic, ethnic factors. In this regard, we will try to limit our article to one essential element which is the following:

This component explores the knowledge and scientific reality in the field of human sciences at the University of Mostaganem, through its library, which is a knowledge capital to provide answers to their theoretical and intellectual problems.

Key words: Library, symbolic capital, acculturation, methods, reading.

مقدمة

تعد المكتبة الواجهة التي من خلالها نتصفح تاريخ المجتمع، ونتتبع مسيرته وإنجازاته التي يعمل على تشييدها من خلال معرفة الفاعلين فيها من عمال، وطلبة، وأساتذة وباحثين، ومن جهة أخرى فهم طبيعة الكتب ومضمونها ولغتها وعددها المتوافر في المكتبة، آخذين بعين الاعتبار الرأسمال المعرفي، والفاعلين الاجتماعيين في هذه المكتبة، لتفادي لغة الأرقام التي عادة ما تبقى شيفرات قابلة لتأويلات واختلافات، تشتت الجهد وتهدر الوقت وتدخلنا في دائرة الأحكام المسبقة.

---

* أستاذ محاضر "أ" بقسم علم الاجتماع، جامعة وهران2 الجزائر مخبر:الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات

belkheirsocio@yahoo.fr

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

كما أننا نحاول أن نلمس مكانة ووظيفة هذا الرأسمال المعرفي المتمثل في المكتبة، للإجابة على الطلبات المجتمعية وما تفرضه من حيرات، وأسئلة تبقى بحاجة إلى أجوبة ذات صبغة علمية، إضافة إلى الإلمام ومتابعة المنظومة المعرفية في العالم ورصد حركاتها ومفاهيمها. وهنا نقف على ثلاث ملاحظات أساسية، تطبع هذه المكتبة من خلال استخدام المقاربة الوصفية للمكان وللفاعلين فيه من خلال تقنية الملاحظة، لفهم المتغيرات الثلاث للدراسة: مدخلات الجامعة، المسألة اللغوية، ومسألة التثاقف،كمحددات نحاول أن نفهمها ونحدد معالمها واستشرافاتها، من خلال الوصف الكمي لكتب المكتبة من جهة:

- غياب شبه الكلي للغة انجليزية *في المكتبة نتيجة ظروف تاريخية ، مرتبطة بالاستعمار، وبطبيعة التكوين الجامعي على أساس أننا ننتمي إلى الدول الفرانكوفونية، على الرغم من أن اللغة الانجليزية أصبحت اللغة المثلى لإدراك الركب الحضاري.
- تواجد الكتب بالغة الفرنسية **بشكل قليل.
- إضافة إلى الكتب المترجمة*** سواء تعلق الأمر باللغة الإنجليزية أو الفرنسية.
- تواجد الكتب باللغة العربية**** بشكل كبير حيث أن رفوفها تكاد تكون ممتلئة.

ومن جهة أخرى تفاعل الفاعلين ACTEURS (أساتذة باحثين، طلبة، باحثين، عمال) مع المكتبة من خلال المتغيرات الثلاث المذكورة أعلاه (مدخلات الجامعة ، المسألة اللغوية ومسألة التثاقف).

ومنه يتبادر لنا مجموعة من التساؤلات من خلال هذه الملاحظات وهي على النحو الآتي:

قبل الحديث عن القراءة، ماذا نريد أن نقدم للفاعلين في الحقل المعرفي، من خلال هذه المكتبة – التي هي صورة نسبية عن واقع المكتبات في الجزائر -باعتبارهم إطارات المستقبل والحاملين لمشاريع المستقبل لهذا البلد؟

هل تواجد الكتب العربية المترجمة لمعارف الآخر، تجسد مفهوم التثاقف الذي يسمح لنا بربح الوقت للحاق بالآخر، أم أنها مجرد ترجمات تساعدنا فقط على فهم الآخر ، على أساس أننا مجتمعات تختلف عليه من حيث البناء والتاريخ ؟

أمام هذه التساؤلات سنحاول تشريح مسألة القراءة في الحقل الجامعي، انطلاقا من مكتبة العلوم الاجتماعية بجامعة ستغانم.

من خلال معطيين أساسيين.

المعطى الأول:

واقع القراءة في الجامعة من خلال معطى محدد متمثل في مكتبة العلوم الاجتماعية.

المعطى الثاني:

* علينا أن نقف على حقيقية تاريخية وآنية، أن اللغة الإنجليزية هي اللغة التي تقود العلوم الاجتماعية والإنسانية ويرجع لها هذا الفضل منذ انتقال معهد البحوث الاجتماعية الذي تحول إلى مدرسة فرانكفورت، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب النازية التي عملت على تحطيمه ومحاكمة من يشتغلون فيه. فمنذ ذلك الحين دخلت اللغة الإنجليزية بواسطة القوة السياسية لأمريكا في أن تكون قبلة لعلماء العلوم الإنسانية، وتصبح المصدر الفكري لتنظير للعلوم الإنسانية والاجتماعية. أكثر من هذا نجد أن جامعات الولايات المتحدة الأمريكية يمتازون بالخصوصية التي لا نجدها في أي جامعة في العالم"فنجد أن جامعات الإتحاد السوفياتي معتنية بالتخطيط ومعتمدة على المركزية وعلى تنسيق وثيق مع سلطات الدولة. أما جامعات بريطانيا فهي تجمع بين التخطيط المركزي والقرارات المستقلة، في حين أن جامعات الولايات المتحدة الأمريكية لا مركزية ولا تعتمد على التنسيق"راجع عمار طالبي،دور الجامعة في المجتمع، مجلة الأصالة، العدد الخامس،السنة الأولى نوفمبر1971، ، الجزائر ، ص59.

** تتوافر المكتبة على حوالي 70 كتاب بالفرنسية

*** توجد في مكتبة خروبة 22 كتاب مترجم من الفرنسية أو الإنجليزية إلى العربية، من طرف المنظمة العربية للترجمة، واختياري لهذه الأخيرة راجع إلى مصداقيتها العالمية وموضوعيتها. كما أنه يوجد في المكتبة بعض الكتب المترجمة من طرف أفراد بعينهم، وعلى هذا يبقى عدد الكتب المترجمة بهذا الشكل لا يتجاوز 30 كتاب.

**** تتوافر المكتبة على حوالي 8 ألاف كتاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إشكالية التثاقف في الجامعة لدى الفاعلين في مكتبة العلوم الاجتماعية بذات الجامعة، من خلال مسألة القراءة.

- **المعطى الأول واقع القراءة في الجامعة:**

تتفق جميع المجتمعات على أن القراءة شيء مقدس، لأنها الأداة الأمثل لترويض العقل وصقل المواهب، وعلى هذا الأساس نجد أن الأفراد يلحون على الأطفال أن يذهبوا إلى المدارس ليتعلموا، على أساس أنها الحقل الذي يخلق نوع من التقسيم الاجتماعي بين الذين يحسنون القراءة والذين لا يقرؤون، وبها أيضا يحدث التقسيم الاجتماعي على أساس الرأسمال الرمزي المدرسي "الدبلومات"[1]. ونجد أن الحضارات القديمة والديانات السماوية، قد أعلت من شأن القراءة بتعظيم مكانتها وسمو قيمتها، على أساس أنها هي الطريق الوحيد الذي من خلاله نخاطب العقل.

أما في الوقت الحالي، تعد القراءة من المواضيع الإستراتجية التي من خلالها تصنف الأمم في هذا العالم المعقد، وتقاس من خلالها أيضا درجة تحضر المجتمعات ورقيها. فانطلاقا من هذه الأهمية التي نوليها للقراءة باعتبارها الوازع الذي يضمن لنا الولوج إلى الركب الحضاري. سنحاول أن نوجه مقالنا اتجاه واقع القراءة في الوسط الجامعي، من خلال مسالة ماذا نقرا وبأي لغة نقرأ، آخذين بعين الاعتبار الفاعلين في مجال القراءة من طلبة وأساتذة وعمال ضمن مجال مكاني محدد متمثل في المكتبة من جهة، إضافة إلى فهم شكل الرهان الواجب رفعه لمعرفة طبيعة التثاقف الحاصل على مستوى الفاعلين في هذا الحقل الجامعي.

نلاحظ من خلال هذه المطالب أننا نهتم بطبيعة النوعية الواجب توافرها في الحقل الجامعي، من خلال مكتبة العلوم الاجتماعية، والفاعلين فيها مركزين على مسألة التثاقف الحاصلة بين الفاعلين في الحقل المعرفي داخل المكتبة، وكيفية تمثلها من طرف الذين يزاولون العمل بها سواء تعلق الأمر بالطلبة أو الأساتذة أو العاملين أيضا. بهذا نحن قد ابتعدنا على الطابع الكمي على الرغم من أهميته، إلا أننا تحاشيناه لأنه يبقى حبيس لغة الأرقام، التي عادة ما نسمعها في الصحف والمؤسسات الرسمية، التي تدل على النسب المخيفة لواقع القراءة في الجامعات الجزائرية.

تعد القراءة الرمز الذي من خلاله نفك رموز اللغات ونحلل معانيها، إضافة إلى أنها الإطار الأمثل، الذي من خلاله نتواصل مع الآخر(الغرب) من خلال منتجاته العلمية والفكرية. وبالتالي يبرز في الفضاء الجامعي رهان حضاري بين ثقافة محلية عربية، أمام ما يفرضه الآخر عليها من تحديات وخيارات ، إضافة إلى غياب لغة الحضارة العالمة والمهيمنة على العالم والمتمثلة في الإنجليزية في الحقول الإنسانية والاجتماعية. وعليه، وأمام هذا الوضع سنناقش مسألة اللغة العربية وسبب تراجعها على مستوى الفاعلين في مكتبة العلوم الاجتماعية من أساتذة وطلبة وعاملين في المكتبة، إضافة إلى عدم وجود كتب باللغة الانجليزية بشكل وافر نتيجة غياب الترجمات. ونحن هنا أمام تحد قديم جديد متمثل في أدلجة أو تسييس الثقافة العربية:

1-1 الثقافة العربية بين الأدلجة السياسية واغتراب الحضور:

تعمدنا ذكر ثقافة عربية، على أساس أن إشكالية الثقافة والحضارة شغلت بال المفكرين ، وسرعان ما تحول النقاش في ما بينهم إلى سجال، الكل يحاول تقوية وجوده مقابل الآخر، "فتزامن استخدام الثقافة عند الألمان مع مقابلها اللغوي في فرنسا، ليعني الخصوصية التي تميز شعبا وأمة وقومية ذات عبقرية وسيادة...ولذلك اعتبر الفلاسفة الألمان كلمة حضارة تعني فقط مساهمة في الثقافة في الرصيد العالمي"[2].

---

[1] - راجع في هذا الصدد بيار بورديو وجان كلود- باسرون،إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش،مراجعة سعود المولى،بيروت المنظمة العربية للترجمة ،2007، ط1،ص183-213.

[2] محمد العربي ولد خليفة،المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية،دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة العالمية،الجزائر،منشورات ثالة،2007،ط1 ، ص24 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعليه سنناقش مسألة تدني استعمال اللغة العربية على المستوى الفاعلين في المكتبة، ونرجعها إلى واقع السياسة ومسألة اللغة العربية. حيث يتبادر لنا نوع من التسرع في إيجاد التطبيق الفعلي والفعال للغة العربية على مستوى المؤسسات الإدارية والتربوية، وهذا راجع إلى غلبة البعد السياسي الإيديولوجي الضيق على حساب مقدرات ومستقبل الأجيال اللاحقة، فالمراهنة على اللغة العربية لم تكن غاية في ذاتها بل كان معطى مأدلج غايته يمكن لنا حصرها في ثلاث عناصر رئيسية هي على النحو الأتي:

- المراهنة على أننا أمة ننتمي إلى القومية العربية، التي عرفت نوع من الانتشار والهيمنة إبان الخمسينات والستينات والسبعينات، ناهيك عن رد الجميل لهذه البلدان التي دعمت الجزائر في استقلالها، هذا هو السبب الذي جعل أصحاب السلطة يعقدون تحالفات سياسية ظرفية بغية وصولهم إلى السلطة باسم القومية العربية من جهة، إضافة إلى لم شمل المجتمع الجزائري تحت شعار الأمة العربية، على أساس بعد ديني، لأن القرآن نزل بلسان عربي.
- العمل على إقصاء الثقافات المحلية واللغات الشفوية، ومنها الأمازيغية كي لا تكون عقبة أمام إجماع وحدة المجتمع، وإن كان هذا المبدأ صحيح لأنه يضمن التوافق بين أطياف المجتمع الجزائري، إلا أن طريقة التعامل مع هذا الملف التراثي الذاكراتي، لم يوظف بشكل جيد، وأصبح قنبلة موقوتة انفجرت مع الربيع الأمازيغي 1980 ومازالت تبعيتها لحد الآن .
- خلق صراع بين المعربين والفرانكفونيين حول من يقود ويتولى المناصب القيادية للدولة، والنتيجة هي إقصاء الكوادر والطاقات البشرية عن تجسيد المشروع المجتمعي، باسم الشرعية اللغوية. وهنا دفع كل من المعربون والفرانكفونيين على حد سواء ضريبة باهظة، نتيجة سياسية المحاصصة القائمة على المشروعية اللغوية في تولي المناصب السياسية والإدارية.

نستشف من هذه المعطيات العامة، غلبة التجاذب السياسي على مستوى صناعة القرار السياسي، متخذين اللغة كدعامة شرعية لفك هذه الصراعات، التي هي تحصيل حاصل لأبعاد تاريخية مرتبطة بالاستعمار. فبعد الاستقلال وظفت الحساسيات التي كانت موجودة في الاستعمار، وأنتجت على أنقاض هذه الحساسيات دعامات شرعية لمواجهة الشرعيات المخالفة لها.

أما في ما يخص الحركة الإسلامية في الجزائر بسريتها وجهرها، سكونها وعنفوانها فترى في التعريب"مرادف للإسلاموية، وحصان طروادة للدعوة الإسلامية، لا يطلب أصحابها أقل من إعادة الجزائريين إلى هويتهما الأولى:الإسلام، ودمجهم في الأمة تحت سيف اللغة المسلول، ورايتها الخفاقة برياح التهديد والوعيد، ولذلك لم يعد بالإمكان أن يحدث التعريب بدون الإسلاميين الذين تسربوا إلى منظمات الشباب والطلبة....ومنذ هذه اللحظة فقدت العربية صلها بالشرق الأوسط الذي تغلب على سياسته اللغوية النزعة اللائكية وملامح التقدمية"[3].

نحن في هذا الإطار سنناقش الصراع بين المعربين والفرانكفونيين وأثره على الجامعة الجزائرية من خلاله بعده سوسيوتاريخي، وأثر كل هذا على واقع القراءة الجامعة الآن.

نلاحظ ونعاين من خلال الواقع الجامعي الذي تفاعلنا معه، سواء كنا طلبة أو أساتذة باحثين، على أن طلبتنا لا يحسنون التحدث بالعربية، وهذا ما نلمسه في أبحاثهم التطبيقية، وفي رسائل تخرجهم. ويرجع هذا النقص الفادح في اللغة العربية حسب "رابح سبع إلى أن عملية تعريب العلوم الاجتماعية في الجامعات الجزائرية...لم يقم على أي بحث بيداغوجي أو تقصي لمناهج تعليم اللغات، كما أن المباشرين للتعليم هم غالبا من أساتذة التعليم الثانوي، وكأن العملية مجرد محو لأمية الكبار بلغة أخرى"[4]. أما في ما يخص اللغة الفرنسية فلا يتقنونها لا على مستوى

---

[3] المرجع نفسه، ص229,

[4] المرجع نفسه ، ص155 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القراءة ولا الكتابة. وإذا ما تتبعنا الجانب التاريخي لمسألة واقع المستوى التعليم الجامعي، فنلاحظ أنه قد عرف انحطاطا منذ نهاية السبعينات وبداية الثمانينيات "فقد شهدت الفترة ما بين 1977 و1978 استراحة أو توقف في عملية التعريب بتعيين مصطفى الأشرف عليٍ رأس وزارة التربية...ويرجع انخفاض المستوى إلى النقص في المعلمين المؤهلين ومزيدات المتشددين في مسالة العربية . وعلق الأشرف على ذلك في حينه"سيتحقق التعريب ولكن ليس من منظور المطالبين بالثأر والسطحيين"[5].ومن هذا يبدو لنا من المفيد أن نحفر جيدا في هذا الحقل الأركيولوجي المعرفي، الذي سينجم عنه قضيتين هامتين ،

القضية الأولى:

الوقوف على مدخلات الجامعة، وهنا علينا أن نستأنس بما أوجده المفكر بورديو حول مسالة النسق الذاتي الإنشائي،لأننا نعتبر هذا النسق مهما في فهم الحقل الجامعي ودرجة تفاعله مع الحقول الاجتماعية الأخرى سواء تعلق الأمر بمدخلاتها أو مخرجاتها" فالنسق ذاتي الإنشاء إنما تتمثل في تنظيمه لتدفقات البرانية داخل أسسه المادية والمعلوماتية، وصياغة وحدات نسقية جديدة للاستعمال وربط بعضها مع بعض ومع سلفها من وحدات"[6]. وهنا يتضح لنا علاقة الجامعة بالمحيط ،سواء أكان ماديا(بيئة) أو اجتماعيا (الخدمات). فالجامعة تتفاعل مع محيطها ، من خلال تحويل الرأسمال البشري المدرسي، إلى إطارات تقود مشاريع التنمية، ولا تكون هذه العملية فاعلة، إلا إذا وقفنا على مضمون هذا التكوين، الذي لا يكون إلا بالقراءة والمطالعة والبحث، الذي من خلاله نساير وندفع بعجلة التنمية نحو الأمام.

نؤكد في هذا الإطار على الحقل المدرسي الذي هو اللبنة الأساسية في إعداد التلميذ، الذي سيصبح بعد اجتياز مجموعة من الامتحانات والمسابقات، طالب جامعي وهنا تبقى الجامعة مرهونة بما تقدمه لها المدرسة، وهذا ما سينعكس على أجزاء البناء الجامعي. فمن مهام الجامعة أنها تكون Former و توجه orienter الطلبة نحو المراجع والمذاهب الفكرية، والطالب هو الذي يذهب إلى البحث لتقصي وفهم هذه الرهانات الفكرية. وعليه فالمدرسة لا تعمل على استقلالية التلميذ بقدر ما تجعل منه فرد يستقبل المعطيات، ويردها بدون أي إضافة أو لمسة إبداعية، بغية المرور إلى الطور اللاحق. وهنا نصادر ونحطم الملكات الإبداعية والفكرية لتلاميذ، الذين سيكونون عقبة أمام متطلبات الجامعة بعد نجاحهم في مسابقة الباكالوريا. إضافة إلى انتشار الأنترنيت التي وظفت بشكل يحط من القراءة و البحث العلمي، فيكتفي الطلبة بما هو موجود في فضاء الانترنيت " حيث أصبح طلبة الجامعات يعتمدون في بحوثهم على مكاتب تجارية تبيع لهم هذه البحوث الجاهزة، يشترونها كما يشترون الوجبات جاهزة من محلات"[7].

ما يهمنا من هذه القضية هو أن الجامعة تحصيل حاصل لمنتجات المدرسة، فلا يمكن طرح مسالة القراءة في الفضاء الجامعي دون التحدث عن مخرجات المدرسة، التي تتحول إلى مدخلات في الفضاء الجامعي.

فقد عرفت المدرسة الجزائرية تحولات هامة يمكن تلخيصها في التحول بما يطلق عليه ب"المدرسة الأساسية"، وهو نموذج يحاكي النموذج السوفياتي في بنائه وبرامجه، وطبق في مرحلة الرئيس الشاذلي بن جديد، ثم مع نهاية تسعينات وبداية الألفية، أعيد النظر في طرح المدرسة، خاصة مع تيار اليسار الذي تمثله الأستاذة مليكة قريفوا، التي ترى أن سبب المشاكل الموجودة في المجتمع الجزائري، من لا استقرار سياسي(العشرية السوداء) وتخلف اقتصادي، وشلل في البحث العلمي، راجعة بالدرجة الأولى إلى المدرسة الأساسية، التي أنتجت هذا

---

[5] المرجع نفسه، ص228 .

[6] بيار بورديو وجان كلود- باسرون،إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش،مراجعة سعود المولى،بيروت المنظمة العربية للترجمة ،2007، ط1،ص38.

[7] - خلدون حسن النقيب، المشكل التربوي والثورة الصامتة دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، في التربية والتنوير في تنمية المجتمع العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،2005، ط1،ص63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخراب. فأدخلت وزارة التربية الوطنية مجموعة من الإصلاحات، التي مازلت وتيرتها تمشي لحد الآن، ومن أهمها الاعتناء باللغات الأجنبية، على أساس أن الجزائر تتعامل مع شعوب مختلفة، بحكم نمط الاقتصاد الحر.
وهنا بعض أن عرجنا نسبيا ببعض الطرائق التي تساعدنا في استنطاق الجامعة الجزائرية ببعدها تاريخي الذي نراه كعنصر مهم و مساعد في فهم واقع القراءة على مستوى الجامعة ، وبالأخص مكتبة العلوم الاجتماعية بجامعة مستغانم، سنحاول أن نربط بين مؤشر مدخلات الجامعة ومخرجاتها ،وذلك بتوضيح أهمية السياسية التعليمية في المدرسة، مركزين على أبعادها التاريخية والموضوعاتية وأثرهما على الطلبة الجامعيين خاصة السنة الأولى. نحن في هذا المقام لا نقدم الإحصائيات لمعرفة معدل القراءة،بقدر ما نولي أهمية للمقاربة النوعية، من خلال تقنية الملاحظة لنبرز وضعية وحالة كيفية القراءة بمكتبة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة مستغانم من خلال:

معاينة الكتب: وذلك بتعددها وتبيان أنواع لغتها كما هو محدد في السابق

الطاقم الهرمي العامل في المكتبة: متمثل في القانون الداخلي للمكتبة

الوافدون إليها من أساتذة وطلبة وباحثين: من خلال إقتنائهم للكتب

فالغاية من ذكر هذه الدوائر الثلاث هو توضيح مسألة القراءة، وكيف عليها أن تعي التحديات الواجب رفعها من خلال :

مدخلات الجامعة و المسألة اللغوية ومسألة التثاقف. ونحن نرى في المتغيرات نقطة قوة في فهم مسألة المقروئية لدى الفاعلين فيها، ليس بطابع كمي متمثل في عدد الكتب المنتقاة في الأسبوع ، اللغات التي يطالع بها الفاعلون في المكتبة، وإن كان هذا مهما، لكن الأهم منه حسب الحدود المرسومة لهذا المقال، هي نوعية قراءة الفاعلين في المكتبة- بعض النظر عن العدد والكم -وما مدى تفاعل هذه القراءة النوعية مع متغيرات، مدخلات الجامعة ، المسألة اللغوية، مسألة التثاقف- كما سياتي في العنصر الموالي -

أعتقد أن وازع المقال يكمن هنا، في إيجاد الرابط التفاعلي بين نوعية القراءة ومتغيرات الواجب الإجابة عليها وهو رهان حقيقي ليس منوط فقط، بمكتبة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة مستغانم، بل يتعدى هذا إلى جامعات الوطن التي تتقاسم هذا التوصيف بحكم التجانس والتشارك في هذه الخصائص، وعنه "فمهمة الجامعة أن تعكس تطلعات المجتمع وأن تبلورها، أن تنمي البذور الخصبة التي تعيش على أرضه. وهي بذلك تساعد المجتمع نفسه على أن يثور ثورة أصيلة على جميع الحواجز التي تعوق تقدمه"[8]. ولا يتأتى هذا إلا بتجاوز عقبة المدرسة، التي تجعل من الطلبة مستقبلين، وليس كفاعلين مبدعين وناقدين من خلال متغير مسألة القراءة في المكتبة، إضافة إلى أن هذه القراءة تفتح لهم باب الفهم، الذي يشجع على التعدد والتنوع، للإسهام في خلق تواصل إيجابي وبناء، بين المكتبة والفاعلين فيها، لا لشيء سوى بالارتقاء بالقراءة لذات و للآخر على حد سواء.

القضية الثانية :

نحاول من خلال هذه القضية أن ننظر إلى مهام الجامعة على " إعداد إطارات التعليم والتثقيف والإدارة والإسهام في التقدم العلمي والفكري، الذي يقوم على تأصيل الثقافة القومية والانفتاح الإيجابي على ثقافات الشعوب. ولا شك في أن الجامعة تسعى إلى ذلك متآزرة مع مؤسسات اجتماعية وثقافية أخرى تعمل بدورها على نشر التعليم وتوعية المواطنين وإغناء حياتهم الوجداني الروحية"[9] . وبهذا نحن نعبر في هذا المقام على تصور ونظرة استشرافية لواقع الجامعة واللغة والقراءة على حد سواء، في التعامل معهم بموقف حكيم وعقلاني بعيد عن لغة الإملاء والوصاية، وواعية بلغة العصر ومستجدات الظروف الحالية.

---

[8] ـ بديع الكسم، علاقة الجامعة بالمجتمع، مجلة الأصالة، العدد الخامس،السنة الأولى نوفمبر 1971، الجزائر، ص62.

[9] بديع الكسم، علاقة الجامعة بالمجتمع، المرجع السابق، ص62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تبقى الجامعة رهانا وتحديا به نستطيع أن نكون، وبدونها نبقى نتيه في حلقات مفرغة، فالجامعة هي الحقل الذي يمدنا "بثلاث عناصر رئيسية:التعليم ، والتربية، والبحث عن الحقيقة لانماء تراث المعرفة، وخدمة المجتمع بالعناصر البشرية المدربة المثقفة التي تحتاج إليها وبالإسهام في شتى وسائل تطوره الأخرى"[10]. ومن هذا يقتضي منا الواقع رفع مستوى الحوار والابتعاد قدر الإمكان على لغة الوصاية والإقصاء، ليتسنى لجميع الأطياف أن يشاركوا في هذا المسعى الكل حسب جهده وقناعته، لبلورة مشروع لغوي متعدد ومتنوع يحسم المسائل المحلية، ويرد على المزايدات الخارجية باسم اللغات الشفهية سواء أكانت عربية أو أمازيغية. ونلاحظ أن وزارة الثقافة والاتصال، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، قد أعطت الأولوية لهذا من خلال مشروع البرنامج الوطني للبحث PNR، عن طريق موضوع التراث المادي والغير المادي. وهي فرصة للباحثين أن يتروا هذا الموضوع الجيوسياسي على المستوى الخارج، ليردوا على أشباه المثقفين الغربيين، الذين يتخذون من هذه المواضيع حطب ليوقدوا بها نارا يخربون به النسيج المجتمعي لهذه الأوطان من جهة،إضافة إلى أنهم يساهموا في إثراء ثقافة المجتمع الجزائري لمعرفة ذاته وأصوله المتعددة والمتنوعة والغنية من جهة أخرى.

وبالتالي ومن خلال هذه الوضعية، ينبغي علينا ان نشخص الواقع، بغية إرساء معالم واضحة لمسالة اللغة كأداة فاعلة في إحداث عملية التثاقف بين اللغات الأخرى من جهة، بالإضافة إلى تحيين وتوسيع مسألة القراءة بمختلف اللغات مما يخلق تعدد وتنوع ثقافي خصب ،يسمح بتدارك الآخر، ومعرفة الذات من جهة أخرى. وعنه تبقى الجامعة المؤسسة الفريدة التي تعمل على تحقيق هذه المهمة النبيلة والفاعلة، في رسم معالم المستقبل الحضاري، ولا تنجح الجامعة في هذه المهمة إلا إذا احتوت على مكتبة ثرية ومتنوعة ومتسامحة، مع جميع العلوم والفهوم، لتتمكن من إفساح المجال للفاعلين فيها أن ينهلوا من هذه العلوم المتعددة والمتنوعة بعيد عن كل وصاية لغوية وفكرية.

المعطى الثاني: إشكالية التثاقف في الجامعة من خلال مسألة القراءة.

يدل مفهوم التثاقف* على الأخذ والعطاء بعيدا عن كل أشكال الوصاية والتهديد"في قاموس العلوم الاجتماعية، يستعمل مفهوم التثاقف للدلالة على الأخذ والعطاء بين المجموعات البشرية، وهو صيرورة من التواصل الثقافي تستوعب من خلاله مجموعات أو مجتمعات أو تجد نفسها مكرهة على الأخذ بسمات خارجية. وبهذا الخصوص، لا يمكن القول بأن هناك ثقافة متلقية بالإطلاق وثقافة موزعة بالإطلاق"[11] لا يوجد منتج محدد في مكان وعبر زمان كما يروج له أصحاب ومنظري الثقافة العالمةCulture Savante، والمستهلك الذي يقبل بهذه الثقافة ولا يحق له مناقشتها ومراجعتها ضمن قيمه ومعاييره الفكرية الثقافية. إن هذه النظرة الجامدة والضيقة لحوار الثقافات، انعكست بشكل فاعل على إستراتجية الحقل الجامعي ومن ضمنه المكتبة والفاعلين الاجتماعيين فيها، حيث نلاحظ نوع من لا تلاقي بين الثقافة المحلية، والثقافة الأجنبية(الغربية)، وهذا ما يظهر لنا من خلال مكتبة العلوم الاجتماعية التي تتسم باللغة العربية بشكل كبير وبدرجة أقل ترجمات للكتب الفرنسية والانجليزية ، والكتب باللغة الفرنسية إن وجدت فيقتصر حضورها بشكل قليل. فأمام هذه الوضعية

---

[10] قسطنطين رزيق، الجامعة ومستقبل الفكر العربي، في الجامعة وإنسان الغد محاضرات العيد السنوي، نقلها إلى العربية،أنيس فريحة وفؤاد صروف، الجامعة الأمريكية في بيروت،1968 ،ص175 .

*ينطوي مفهوم التثاقف على عدة معاني يمكن إيجازها على النحو الآتي:

" أ. التثاقف الطبيعي الحر، حيث يقع التداخل والتقاطع عند نقاط التماس. ب. التثاقف المنظم، وهو ذو طابع قسري لصالح مجموعة واحدة، وتكون فيه نية تغيير على الأمد القريب لثقافة المجموعة المستضعفة، ويكون الغرض منها تطويع هذه المجموعة لتسخيرها في أعمال المجموعة المهيمنة، كما يقع ما يسمى بنزع الثقافة أو طمسها. ج. التثاقف المنظم والمبرمج، ويكون له جهاز مراقبة وهو مهيكل ويرمي إلى تغيير ثقافة مجموعة أو مجتمع على المدى البعيد". أنظر علال بن عزمية ، وآخرون، أطروحات الصراع التثاقف، بحث في التميز، في التواصل والتثاقف، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية،2010،ط1،ص72وص 73.

[11] المرجع نفسه، ص72 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نلاحظ أن المثاقفة فقدت وازعيتها أمام أهم حقل المتمثل في الجامعة بإعتبارها الفضاء الذي من خلاله يتم الحوار والتبادل والتعاون ضمن أطر علمية وإنسانية بعيدة عن نزعات العقائدية والأيديولوجيات السياسية الضيقة .

لا بأس أن نقف على معطيات التاريخية لأننا نرى فيها الخيط الرشيد لفهم واقع القراءة في المكتبة التي تعكس عملية المثاقفة. يمكن تفسير هذا التذبذب التواصلي بين الثقافتين المحلية (العربية)والأجنبية (الغربية) حتى على مستوى الجامعة إلى بعد تاريخي بالدرجة الأولى. ففي مرحلة الاستعمارية في الجزائر وظف رجال السياسية الفرنسية،المشروع الثقافي كرهان لاستئصال المشروع الثقافي المحلي، وذلك"بإخضاع الجزائريين بطريقتين: تتمثل الأولى في تثبيتهم في التخلف ودفعهم كما يقول (آجرون) نحو حالة التوحش الحيوانية، وتستهدف الثانية منع وصول الجزائريين إلى تكوين عال باللغة الفرنسية وحتى نظام المدرسة المزدوج اللغة الذي بدأ في النصف الثاني من القرن19"[12]. وهنا أقحم المستعمر مجال التثاقف في مخططاته الاستعمارية، لتبرير وجوده، ولترسيخ منطق التفوق البشري على حساب المجموعات البشرية الأخرى، وهنا قد اغتيلت العملية التثاقفية، لحساب الاستعمار الذي يفكر بمنطق المصالح والخيرات المادية، على حساب مقدرات تواصل الإنساني بين الشعوب والأديان والأعراق واللغات والحضارات.

بعد استقلال الجزائر"صرنا نعيش في جو فكري جديد، فقد طالب الوطنيون بتحرير التربية من زخارف الاستعباد الاستعماري، ومما يسترعي النظر أن الجامعات الجديدة التي أسست بعد الاستقلال أبت كل شكل من أشكال الوصاية للجامعات الأجنبية عليها"[13]. وبهذا اعتبرت الجامعة من الهيئات الاجتماعية السياسية الرائدة، ويتبين لنا هذا من خلال طابعها العام، الذي يسير بطريقة عقلانية وبيروقراطية وبصيغة هادفة، "فيساهم العمل المدرسي في تكوين الفرد على طريقة المجتمعات المتحضرة، ومنها خاصية ...القدرة على الابتعاد عن الذات"[14]. انطلاقا من هذه القوانين ومن خلال البرامج التعليمية المعتمدة في تنشئة الجيل، من تحسيس بأهمية الوطن، والدفاع على النظام السياسي الحامي له، تتخذ البرامج التعليمية كوسيلة فعالة لخلق الولاء لهذا الوطن والدفاع عنه، وذلك بتقديم التبريرات الدينية والتاريخية والإنسانية التي تخدم هذا التوجه.

فما يهمنا من هذا العرض، هو محاولة إيجاد موضع الربط بين الثقافة المحلية الجامعة (الوطنية)، والثقافات الأخرى الأجنبية، من خلال مكتبة العلوم الاجتماعية بخروبة بمستغانم "فالجامعات لا تستطيع العمل في فراغ ثقافي. فهي تنشأ لخدمة ثقافة بعينها، وكل محاولة لغرس جامعة أجنبية في بيئة ثقافية مغايرة لبيئتها الأصيلة هي محاولة مقضي عليها بالخيبة"[15]. وعنه نلاحظ من خلال الكتب المتوافرة في المكتبة وكما أشرنا إليه في البداية بلغة الأرقام، غلبة الكتب باللغة العربية بشكل كبير، ثم الكتب باللغة الفرنسية بشكل أقل، والكتب باللغة الإنجليزية يكاد يكون منعدم. وهذا راجع حسب تصورنا إلى إنتاج خطاب تواصلي مع الذات، خوفا من الاغتراب الهوياتي، وطمعا في إبراز معالم هوية الذات في الجهة المقابلة من جهة. إضافة إلى التقية من المخططات الثقافية الأجنبية لأن "هنا تتجلى أهمية التمييز الذي أحدثناه بين الثقافة الأساسية والثقافة العليا، بين الحضارة الحية والحضارة المادية. إن المسلم والمسيحي واليهودي لا يحتاجون إلى الثقافة العليا والحضارة المادية ليكونوا هوياتهم،فالثقافة الأساسية كافية لذلك وهذا ما حدث تاريخيا ولا يزال حاصلا لعدد كبير من الأفراد"[16] ،بمعنى أن

---

12 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة العالمية، المرجع السابق، ص125.

13 ونوكا ديكيه والآخرون ،الجامعة والانماء الوطني،في الجامعة وإنسان الغد محاضرات العيد السنوي، نقلها إلى العربية،أنيس فريحة وفؤاد صروف، الجامعة الأمريكية في بيروت،1968 ،ص74.

14 - Jean-Manuel de Queiroz ,L'Ecole et ses sociologies_,Nathan ,2003,p118 . « le travail scolaire contribue à construire cet individu personnel typique des société modernes ,dont une des caractéristique …et la capacité de distance à soi –même »

15 أونوكا ديكيه والآخرون ،الجامعة والانماء الوطني،المرجع السابق ،ص69 .

16- علال بن عزمية ، والآخرون، المرجع السابق، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية،2010،ط1،ص66 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إشكالية تلقي ثقافة إجبارية مفروضة، هو عين الاقتلاع والاغتراب، الذي مارسه المستعمر على شعوب العالم باسم التحضر والتمدن.

ما يهمنا من هذا العنصر أن نتمكن من تعلم لغات العالم وخاصة اللغات العالمة ، كي نستطيع التواصل معهم من جهة ، كما يمكننا تصدير ثقافتنا من جهة أخرى . على أساس أن التثاقف يقوم على الأصل ويستند عليه ولا يلغيه، يدعم القيم الذاتية ولا يستأصلها، كما أنه يتفاعل مع الآخر بدون مركب نقص ولا دونية، وذلك بالاستفادة من الثقافة الأخرى من خلال إستخدام أدواتها ومنظومتها المعرفية من أجل تفعيل الثقافة الذاتية. وهذا ما نأمل أن يتكرس في مكتبة العلوم الاجتماعية بجامعة مستغانم، من خلال تعدد وتنوع كتبها من العربي إلى الفرنسي الإنجليزي ...إلخ. أما في ما يخص الفاعلين في المكتبة، من طلبة، وأساتذة وباحثين ،وعاملين، أن يستوعبوا حجم الرهان ، ويعملون على رفع التحدي متجاوزين الأفكار المسبقة والأحكام الجامدة، التي تشتت الجهد، وتفرق الأفراد تحت شعارات واهية(معرب،مفرنس، ملحد،إسلاموي...إلخ).

خاتمة:

بحكم التخصص المعرفي الذي تكونا فيه ونشتغل عليه، نرى انه يقوم على موضوعين أساسيين، هما العلم والإنسان، ونعتقد أن كل أطراف العالم تشترك في هذا المبدأ، وعليه علينا وضع الأدلجة بجانب، لأن مكانها وإطارها، غير موات في الجامعة، سواء تعلق الأمر بمن يريدون أسلمت الجامعة، أو الخطاب الآخر الذي يريد بهرجة الجامعة ليجعل منها مهرجان لترويج برامج لا تمت بصلة لا بالعلم ولا بالمعرفة. نريد من الجامعة أن نجتمع فيها، على كلمتي العلم والإنسان، كي نساهم في "بداية الحوار وفي تكسير الصور السلبية والمحطمة التي يتبادلها الاثنان معا وتصحيح الآراء المسبقة ، فالغرب ليس الشيطان المادي وغير الأخلاقي والملحد، والإسلام ليس تلك الإيديولوجية التي تخيف"[17]. نريد من الطالب الذي يشتغل على ميدان العلم والمعرفة، والذي سيصبح بالكاد إطار المستقبل،أن يقرأ كثيرا وبمختلف اللغات دون أي عقدة أو مرجعية مسبقة، لا لشيء سوى أن يدرك أبعاد المعرفة ورهانات العلوم، التي من شأنها أن تساهم في بلورة مشروع حضاري يستند على مقومات صحيحة عارفة بالماضي ومدركة لنقائصه ومثالياته، ومنكبه على الحاضر متطلعة ومميزة بين المشاريع الحضارية الواجب اختيارها كي نكون، ومتربصة بالمستقبل حتى تتفادى الهزات العنيفة، التي لا ترحم من لا يقرأ الماضي، ويفهم الحاضر، ويتطلع إلى المستقبل.

المراجع:

بيار بورديو وجان كلود- باسرون، إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش،مراجعة سعود المولى، بيروت المنظمة العربية للترجمة ، 2007، ط1.

خلدون حسن النقيب، المشكل التربوي والثورة الصامتة دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، في التربية والتنوير في تنمية المجتمع العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ط1.

محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة العالمية، الجزائر، منشورات ثالة، 2007،ط1

مجموعة من المؤلفين، التواصل والتثاقف، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية،2010،ط1.

مجموعة من المؤلفين، الجامعة وإنسان الغد محاضرات العيد السنوي، نفلها إلى العربية،أنيس فريحة وفؤاد صروف، الجامعة الأمريكية في بيروت،1968 .

مجلة الأصالة، العدد الخامس، السنة الأولى نوفمبر1971، الجزائر.

Jean-Manuel de Queiroz, L’Ecole et ses sociologies, Nathan ,2003.

[17] علال بن عزمية ، وآخرون، أطروحات الصراع والتثاقف، بحث في التمييز، في التواصل والتثاقف، الدار البيضاء، منشورات عالم التربية،2010، ط1، ص75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com